

السينما السورية... من القطاع العام إلى القطاع الخاص

Syrian Cinema...From the Public Sector to the Private Sector

بغالية أحمد¹

جامعة سعيدة الدكتور-مولاي الطاهر-

Beghaliaahmed7@gmail.com

تاريخ النشر: 2025/12/26	تاريخ القبول: 2025/12/21	تاريخ الإرسال: 2025/09/06
-------------------------	--------------------------	---------------------------

الملخص :

تعتبر السينما السورية من أهم السينمات العربية حيث كانت المحاولات الأولى للإنتاج السينمائي في سورية مع بداية مطلع القرن العشرين، كما يعد عام 1908 تاريخاً حقيقياً لظهور السينما بسورية، حيث وجدت أولى العروض بمدينة حلب، كما يعتبر عام 1912 تاريخ ظهور العروض بمدينة دمشق، فقد كان لهذا الفن-السينمائي- الوافد من دول أوروبا هو الوسيلة الأكثر تعبيراً عن الواقع، بحيث جلب إليه عدد من الشباب السوري المتحمس والشغوف للسينما في منتصف عشرينات القرن العشرين وعملوا على إيجاد صناعة سينمائية في سورية على غرار مثيلاتها العربية، أما في عام 1927 فقد تم البدء بتصوير أول فيلم سينمائي سوري.

الكلمات المفتاحية: الصناعة السينمائية- التسويق- الإنتاج السينمائي- دور العرض- البكرات الفيلمية- السينما الناطقة-سينما الكوزموغراف-التصوير-المؤسسة العامة للسينما-الأفلمة.

Abstract:

Syrian cinema is considered one of the most important Arab cinemas, as the first attempts at film production in Syria were at the beginning of the twentieth century. The year 1908 is considered a true date for the emergence of cinema in Syria, as the first screenings took place in the city of Aleppo. The year 1912 is considered the date of the emergence of screenings in the city of Damascus. This cinematic art, which came from European countries, was the most expressive means of reflecting reality. It attracted a number of enthusiastic and passionate Syrian youth to it in the mid-twenties of the twentieth century, and they worked to create a film industry in Syria similar to its Arab counterparts. In 1927, the filming of the first Syrian film began.

¹ بغالية أحمد

1. مقدمة:

يرى الكثير من الملاحظين أن السينما السورية والمصرية توأمان، فقد أنتجا الأفلام في فترة متقاربة بالكاد، إذ لم تسبق السينما المصرية نظيرتها السورية إلاّ بعام واحد فقط وقد عانت -السورية- فترات صمت طويلة جعلت أفلامها ضئيلة ولكنّها بالرغم من تلك القلة الإنتاجية كانت متميّزة، هذا التميز جعل مسارها مختلف نوعاً ما، مختلف من حيث الانطلاقة والتطور وكذا المعوقات التي واجهتها، إلى جانب عملية التوزيع التي كانت غير مستقرة بالموازاة مع السينما المصرية، وإن كان هذا الأمر متفرداً ومميزاً بالنسبة للسينما المصرية في مقابل كل السينمات العربية مجتمعة، خاصة وأنه دائماً ما يطرح مشكل اللغة في موضوع التسويق السينمائي، ورغم أن السينما السورية لم تكن معنية بمشكل اللغة إلا أنها لم تكن لها صدى مثل نظيرتها المصرية إلا باستثناء بعض الأعمال، غير أن المهتمين بالشأن السينمائي العربي يرون أنّ هناك اشتغال حقيقي على الصناعة السينمائية سواء من القطاع العام أو الخاص المصري واتخاذ -الفن السينمائي- نشاط حيوي مثله مثل السياحة لم تصل إليه الدول العربية بما فيها سوريا. من هذا تنبثق إشكالية مدى تطابق هذا الانطباع على السينما السورية، ولتحديد تلك الإشكالية حاول البحث الغوص في حيثيات مسار السينما السورية من الإرهاصات إلى ما بعد الألفية من خلال توظيف المنهج التاريخي وكذا الوصفي من أجل ضبط أهم النقاط المحددة للإجابة على الإشكالية.

2. النشأة والتطور:

عرفت سوريا أول عرض سينماتوغرافي عام 1908 في مدينة حلب، بحيث جاء بعض الأجانب إلى الشمال السوري عن طريق تركيا، وعرضوا على الأهالي في تلك الفترة صوراً متحركة، ولم تبدأ الحفلات المنظمة الأولى في أحد مقاهي دمشق إلا عام 1912، فكان لها النجاح ما حفز على وجود قاعات عديدة في سوريا التي كانت حينذاك تحت السيطرة التركية¹ إلا أنه حتى عام 1928 لم يكن هناك أي إنتاج سينماتوغرافي وطني بالرغم من أنّ دور العرض السينمائية بدأت في الانتشار في أغلب المدن السورية، وفي عام 1916 أنشأ العثمانيون في مدينة دمشق أول قاعة للصور المتحركة في نهج الصالحية (قبة البرلمان حالياً) وسميت تلك القاعة ب(سينما جنّاق قلعة) وذلك تخليداً لذكرى انتصار العثمانيون على الأسطول الإنجليزي في مضيق جنّاق قلعة الذي يصل البحر المتوسط ببحر مرمرة.

تم عرض أول فيلم سينمائي في هذه القاعة وكان من إنتاج شركة ألمانية، وهو عبارة عن فيلم مميّز وقد كان الإقبال عليه كبيراً لأنّ فن السينما آنذاك كان غريباً وبدعة جديدة إكتشفها الجمهور، وفي عام 1918 بنيت صالة سينمائية أخرى سميت ب(سينما زهرة دمشق)، وكانت تعرض أفلاماً فرنسية تراجيدية وأخرى كوميدية، وبعد تلك الفترة افتتح شخص أجنبي يدعى (الكوبو ليسفتش - Alekobo Lesfetch) صالة

سينما أخرى سميت ب(الإصلاح خانة) كما قام تاجر سلاح أرمني يدعى (أرميناك - Armenak) بتأسيس دار سينما أخرى كذلك سماها (سينما النصر)، وفي عام 1924 افتتح (توفيق شماس) هو الآخر سينما (الكوزموغراف) التي اتخذت فيما بعد إسم (سينما أمية)، ثم توالى الافتتاحات لصالات عديدة في دمشق والمدن السورية² الأخرى، غير أنّ معظم هذه الدور كان يحدث لها شيء غريب جدا هو احتراقها، وكان الاحتراق ناتجا عادة عن أسباب تقنية محضة، بحيث أن الفيلم كان يقع تحت تأثير الحرارة الشديدة المنبعثة من ضوء القوس الكهربائي، وكانت مادة الأفلام آنذاك من المواد السريعة الالتهاب، كما كانت الآلات العارضة هي الأخرى بسيطة لا تتوفر على حافظة للبكرات الفيلمية.

ومن جهة أخرى تجدر الإشارة إلى أن كل الأفلام التي كانت تعرض في هذه القاعات عبارة عن أفلام صامتة، حتى مجيء السادة (شماس وقطان وحداد) وقيامهم بإدخال السينما الناطقة إلى دور العرض السورية وذلك عام 1934 بالضبط ثم انتشرت دور عرض السينما الناطقة في مختلف الأرجاء³.

3. إنتاج القطاع الخاص:

تعرفت سوريا على الإنتاج السينمائي منذ 1928 ولكن هذا الإنتاج ظلّ قاصرا على الهواة دون وجود إنتاج سينمائي محترف حتى أواخر الستينيات حيث بدأ الاهتمام بقطاع إنتاج السينما .

في حين شهد النصف الأول من السبعينيات ازدهار الإنتاج السينمائي السوري في كل من أفلام (نبيل المالح) مثل "الفهد" و(قيس الزبيدي) مثل "اليازلي" و(عمر أميرالاي) مثل "الحياة اليومية في قرية سورية"... والملاحظ على الأفلام السورية تميزها بتجارب فنية متطلعة لمستقبل يحاول أن يعبر عن الواقع واكتشاف الأسلوب الفني الملائم للتعبير السوري في الوقت نفسه⁴.

أنجبت سورية في عام 1928 أول فيلم خيالي طويل وهو فيلم (المتهم البريء) وقد عكف على إنتاجه مجموعة من الشباب المتحمس لفن السينما إذ أسسوا شركة للإنتاج السينمائي تحت عنوان (حرمون فيلم)، واعتمدوا في إنتاج هذا الفيلم حسب ما يؤرخ الكاتب السينمائي (جان الكسان) على جهاز صغير للتصوير السينماتوغرافي قياسي 35 مم من طراز (كينامو)، وهؤلاء الشبان هم (أيوب بدري) و(أحمد تلو) و(محمد المرادي)، كما تجدر الإشارة إلى أنّ هؤلاء زيادة على عملية الإنتاج هم أنفسهم الممثلون، حيث تقاسم (أيوب بدري) الأدوار مع زميله .

كانت رواية الحدث الفيلمي مستوحاة من قصة واقعية، وقعت أحداثها في دمشق إبان الحكم الفيصلي، وهي قصة عصابة من اللصوص عاشت مفسدة في أنحاء مختلفة من مدينة دمشق وألقت الرعب في

نفوس الساكنة، وقد تمت عملية التصوير خلال ثمانية أشهر وكان طول الفيلم 800 متر، وتم إرسال الأفلام المصورة (النيجاتيف) إلى شركة (أكليرتيراج) في فرنسا من أجل التحميص والطبع، وأخيرا تم عرض أول فيلم سوري في قاعة سينما الكوزموغراف، وكان الإقبال عليه إقبالا كبيرا بالرغم من أن الفيلم كان صامتا، وكنتيجة للإقبال الكبير على فيلم المتهم البريء قام فريق آخر ومكون هو كذلك من شباب مغامر محب ومتحمس للفن السينمائي بتأسيس شركة إنتاج السينمائي جديدة سميت (هليوس فيلم) وكان رأسمال الشركة في حينه يقدر بأربع مائة ليرة عثمانية ذهبية، كما كلفت الشركة (رشيد جلال) وهو من مؤسسي شركة (حرمون فيلم سابقا) للإشراف والمتابعة لجميع عمليات الإنتاج⁵.

أنتجت مؤسسة (هليوس فيلم) في فترتها فيلم (تحت سماء دمشق) وعرض الفيلم صامتا عام 1932 ورغم أن الفيلم الناطق في تلك الفترة في العالم كان قد حل محل الفيلم الصامت الذي أخذ يتوارى أمام الفيلم الناطق ابتداء من 1927 فكل الأمور التقنية أصبحت متغيرة على غرار سرعة الفيلم الصامت نفسه وكذا كمرته⁶.

جرت مشاهد تصوير الفيلم (تحت سماء دمشق) في غوطة دمشق ومداخل المدينة وفي قصر الأمير (سعيد الجزائري) بدمر، حيث نفذ تصوير المشاهد الداخلية، كما صوّرت بعضها في محطة الحجاز، حيث وضفت فيها عربات القطارات، وتم تصوير المسافرين خلال بعض المشاهد (كومبارس).

أحدث فيلم شركة (هليوس فيلم) الصامت ضجة كبيرة آنذاك في دور عرض السينما حتى تلقى أصحابه ضربة موجعة حينما فوجئوا بإعلانات في الشوارع عن اقتراب عرض فيلم ناطق بعنوان (أنشودة الفؤاد)، وبالفعل عرض الفيلم المصري الناطق في صالة العباسية حينها، الأمر الذي جعل فيلم (تحت سماء دمشق) الصامت يبدو رديئا أمام قوة الفيلم الناطق الجديد، وبذلك كان فيلم (تحت سماء دمشق) بمثابة انطواء صفحة إنتاج الفيلم الصامت في سوريا، غير أن الناقد السينمائي صلاح ذهني، يؤكد أن مخرج وممثل الفيلم الأول (المتهم البريء) أيوب بدري قام بإنتاج فيلم آخر جديد هو (نداء الواجب) عام 1937 بالرغم من عدم وجود إثبات أو نسخة من الفيلم.

في أواخر عام 1947 قام (نزيه الشهبندر) بتهيئة أستوديو مجهز بكل المعدات من تصوير وصوت وإضاءة وطبع وتحميص، والملفت في الموضوع أن هذا الأستوديو جميع تجهيزاته من صنع نزيه، وكانت المباشرة في تصوير أول فيلم سوري ناطق وهو فيلم (نور وظلام) وذلك في سنة 1948 وتم عرض الفيلم في جميع دور عرض المدن السورية واللبنانية وكذا المهجر وحقق إيرادات مبهرة في وقتها، وتوالت

الإنتاجات لأفلام أخرى مثل فيلم (عابر سبيل) ل(أحمد عرفان) الذي أنتجه عام 1950 لفائدة شركة سينمائية جديدة أخرى تأسست في حلب وهي (شركة عرفان وجالق).

في بداية الستينيات قام الفنان (زهير الشوا) بإنتاج فيلم (الوادي الأخضر) بالاعتماد على معمل سينمائي شبه أستوديو صغير بناه بنفسه وكان الفيلم من تمثيله وإخراجه، وتناول موضوع المشاكل بين الفلاحين على الأراضي وتوزيع مياه الري وكذا موضوع الثأر المنقشي في المنطقة، ويقال أن قصة الفيلم مأخوذة من حادثة حقيقية وقعت في بلدة دير عطية، وفي عام 1963 قام الفنان نفسه (زهير الشوا) كذلك بمغامرة فردية أخرى فريدة من خلال محاولة إنتاج فيلم آخر بعنوان (وراء الحدود) وتدور أحداثه حول القضية الفلسطينية، إلا أن الفيلم لم يرى النور لأنه كان بحاجة سيولة مالية أكثر لم يستطع (الشوا) تأمين هذا الجانب من الإنتاج، إلا أن (زهير الشوا) يفاجئ الجميع بالعودة إلى إنتاج فيلم جديد عام 1966 وهو (لعبة الشيطان) من إخراجه وتمثيله كذلك يتناول فيه موضوعا اجتماعيا حول الحب والخيانة والتشرد.

وعليه تجدر الإشارة إلى أن القطاع الخاص في السينما السورية أنتج أفلاما تجارية مقاولاتية ربحية، حيث وبعد أن تشكلت مجموعة شركات سينمائية خاصة منذ الستينيات وحتى عام 1987 إذ وصل مجموع إنتاجها إلى ثمانين فيلما وكانت البداية مع الفنان الكبير دريد اللّحام وكذا الفنان نهاد قلعي، خاصة بعد نجاحهما في التلفزيون.

4. إنتاج القطاع العام:

يرى المهتمون بالحقل السينمائي السوري أن القطاع العام بدأ بعد تأسيس المؤسسة العامة للسينما سنة 1963 والحقيقة أن الدولة هي التي تدخلت في ميدان السينما قبل إنشاء تلك المؤسسة، حيث وفي عام 1958 تأسست وزارة الثقافة السورية والتي أوجدت دائرة خاصة تعنى بشؤون الفن السينماتوغرافي، كما يذكر الناقد حسان أبو غنيمة أن هذه الدائرة وضعت لها برنامجا مكثفا ومهما يبدأ بالعمل على نشر الثقافة السينماتوغرافية وإنشاء مكتبة للأفلام وينتهي بإنتاجها.

من جهة ثانية، تعاقدت الوصية مع خبراء من داخل سوريا وخارجها (مخرج ومصور يوغسلافيين) وباشرت عملها بكاميرا 35 مم، فقامت بإنتاج مجموعة مهمة من الأفلام القصيرة تعرض مناظر عن سوريا وآثارها وتقاليد وسلوكيات شعبها وتقدمها للاقتصادي والعمراني والاجتماعي، كما أرسلت عام 1959 مجموعة من الشباب لدراسة فن السينما ومهامه المختلفة إلى خارج البلاد من بينهم المخرج (نبيل

المالح) الذي درس الإخراج السينمائي والتلفزيوني في التشيكوسلوفاكيا لكن أهم منجز حققته الوزارة في المجال السينمائي السوري هو إنشاء المؤسسة العامة للسينما بتاريخ 12 أكتوبر من عام 1963، قصد تطوير مهمة الدائرة السينمائية في وزارة الثقافة.

كانت حقيقة تأسيس المؤسسة العامة للسينما هو تأمين صناعة السينما في سوريا وربط الإنتاج السينمائي وجعله تابعا للدولة أي محصورا على القطاع العام خاصة بعد فشل القطاع الخاص في صناعة سينما يمكنها القيام بوظائف إيجابية تعود بالفائدة على الدولة في المجالات الوطنية والثقافية والاجتماعية وقد حددت أهداف المؤسسة آنذاك بما يلي:

1- النهوض بالصناعة السينمائية في الجمهورية العربية السورية ومواكبة نظيراتها العربية.

2- دعم الإنتاج في القطاع الخاص بعد انهياره.

3- توجيه الإنتاج السينمائي في خدمة الثقافة والعلم والقضايا الوطنية والقومية المختلفة.

بدأت المؤسسة عملها سنة 1967 بفيلم (سائق الشاحنة) من إخراج اليوغسلافي الجنسية (بوشكوفوتشينيتش)، الذي يعتبر فيلمه تمهيدا لطريق طويل وصعب، وقد كتب في تلك الفترة صلاح ذهني، عن فيلم (سائق الشاحنة): "إن فيلم سائق الشاحنة فيلم راشد، ويشكل ولادة جديدة للسينما العربية في سوريا، وهو أول فيلم جدّي صنع في جدية... سائق الشاحنة، انطلاقة جيّدة ورصينة لسينما القطاع العام، تشغفنا بذاتها كتجربة مهمة، وتزيدنا تطلعا وإيمانا بالخطوات التالية لمؤسسة السينما".

وبعد هذا العمل الفني السينمائي توالى الأفلام الروائية السورية ذات المستوى، بالإضافة إلى مجموعة مهمة من الأفلام التسجيلية وكذا القصيرة، إذ يمكن القول أن فترة السبعينيات من أكثر الفترات عطاء وإنتاج في مسار السينما السورية، بالمقابل كانت حقبة الخمسينيات والستينيات للسينما السورية فترة إنكماش، حيث يرى الناقد ذاته -صلاح ذهني- أن السينما السورية في هذه الفترة بقيت في حالة سكون إذ ما يقارب عشر سنوات، علما أن مجموعة كبيرة من السينمائيين السوريين انتقلت للعمل في تلك الحقبة للعمل في مختلف الميادين بלבنا.

5. الانطلاقة حقيقية:

تعد بداية السبعينيات هي الانطلاقة الحقيقية للسينما السورية وذلك من حيث الإنتاج المحترف والنوعية الجيدة والجادة للأفلام التي طرحتها المؤسسة العامة للسينما في هذا السوق، إذ يذكر السينمائي (ظافر

هنري عازار) في مؤلفه (نظرة على السينما العالمية المعاصرة -ج2)، أن المؤسسة أنتجت قائمة أفلام روائية جدية تميّزت عن النمط السائد آنذاك في معظم الأقطار العربية، ومن تلك الأفلام نجد "الفهد" للمخرج (نبيل المالح) و"المخدوعون" ل(توفيق صالح) و"السكين" ل(خالد حمادة) وفيلم "مائة وجه ليوم واحد" ل(كريستيان غازي)، بالإضافة إلى الثلاثية الفيلمية الروائية "رجال تحت الشمس" للمخرجين الثلاثة (نبيل المالح)، و(مروان المؤذن)، و(محمد شاهين).

خلال هذا العقد من الزمن، ظهرت أفلام جادة هي الأخرى وملتزمة، كان لها الدور الفعال في التأسيس الحقيقي للسينما السورية الجديدة مثل فيلم "العار" ل(بلال الصابوني) 1974، "الاتجاه المعاكس" ل(مروان حداد) 1975 "غابة الذئاب" ل(محمد شاهين) 1977 "القلعة الخامسة" ل(بلال الصابوني) 1978 "المصيصة" ل(وديع يوسف) 1979 "الأبطال يولدون مرتين" ل(صلاح ذهني) 1979⁷.

بالرغم من كل ما كتب في هذا البحث حول السينما السورية ومع الاستثناء لبعض الأفلام القصيرة كفيلم "الأرجوحة" على سبيل المثال الذي فاز بجائزة رئيسية لم تكن في أحسن حالاتها عبر الأفلام التي قدمتها لحد الآن، وهذا ما يراه كذلك -على الأقل- رأي عدد من النقاد الذين قالوا أنهم كانوا يتوقعون الأفضل، لكن الحكم بهذا لا يتطلع إلى نظرة نقدية بصيرة في المجال، لأن هناك أفلام مهمة كذلك في السينما السورية من أمثال فيلم "الأبطال يولدون مرتين" للمخرج والناقد صلاح ذهني لم يأخذ حقه من الإهتمام⁸.

من حيث الأعمال المشتركة نلاحظ أن السينما السورية تعاونت في تلك الآونة مع عدد من المخرجين العرب من أمثال (توفيق صالح) و(برهان علوية)، وقد اهتمت مواضيع تلك الأفلام بالقضية الفلسطينية بأبعادها المختلفة والمتغيرة، ومن الجدير بنا كذلك ذكر أن فترة السبعينيات انطلق منها شعار (السينما العربية البديلة)، وذلك لأول مرة في مهرجان سينما الشباب المنعقد في دمشق سنة 1972 حيث التقى فريق من المخرجين والفنيين والفنانين والنقاد السينمائيين من مختلف الدول العربية، داعين إلى إيجاد نوع من السينما البديلة الراضية لنمطية السينما المصرية التقليدية، خاصة مع انتشار سينما الأفلام التجارية في الدول العربية عامة وجمهورية مصر العربية خاصة.

يلاحظ أن مستوى الأفلام التي أنتجتها المؤسسة العامة للسينما من حيث الكمّ والكيف في فترة السبعينيات، جاء تطبيقاً عملياً لهذا الشعار، وفي هذا السياق يذكر الناقد (حسان أبو غنيمة) في مقالته (السينما السورية ملامح أولية لسينما عربية جادة) المنشورة في مجلة "الطريق" البيروتية (عدد يوليو 1972) أن السينما السورية الفتية استطاعت في مدة وجيزة إثبات تميّزها الفني والفكري لتعطي الملامح الأولية للصورة المشرقة للسينما العربية الجادة والحقيقية.

1.5 سبعينيات السينما السورية :

على نحو مهم كذلك تجد الإشارة إلى أن فترة السبعينيات شهدت ولادة الفيلم السياسي السوري، حيث يجد الباحث في هذه الحقبة أكثر من فيلم روائي طويل تناول مادة سياسية وطرحها بلغة سينمائية جادة، إلى أن جاءت الثمانينيات تتويجا لعمل السبعينيات من حيث إنتاج أكثر للأفلام الجادة، وقد طرحت أغلب هذه الأفلام موضوعات سياسية جادة وبرؤية مستقبلية وفكرية صحيحة، فاستطاعت الحصول على جوائز مهمة في المهرجانات العالمية على غرار فيلم (محمد ملص) "أحلام المدينة"، من زاوية مغايرة تجدر الإشارة كذلك إلى أنّ سينما القطاع العام لا تقتصر على إنتاج المؤسسة العامة للسينما فقط، وإن كانت في المقدمة، غير أن هناك قطاعات أخرى تهتم بالإنتاج السينمائي وتتبع الدولة في ذلك وهي⁹:

1- التلفزيون الذي استهل إنتاجه السينمائي بالأفلام القصيرة وذلك قبل إنشاء قسم الإنتاج السينمائي فيه، حيث أنتج مجموعة من الأفلام القصيرة وفيلم واحد طويل هو "الرجل" من إخراج (فيصل الياسري)، وبعد إنشاء دائرة الإنتاج السينمائي في سبتمبر 1973 أنتج التلفزيون مجموعة كثيرة ومختلفة من الأفلام القصيرة والمتوسطة والطويلة.

2- دائرة السينما في الإدارة السياسية للجيش والقوات المسلحة، إذ تمّ بها إنتاج أفلام روائية طويلة على سبيل المثال "حتى الرجل الأخير" من إخراج (أمين البني)، بالإضافة إلى عدد هائل من الأفلام القصيرة والوثائقية عن حرب أكتوبر خاصة مثل أفلام "دمشق ترحب بكم" و"معرض تشرين".

3 نقابة الفنانين هي الأخرى أنتجت فيلما واحدا فقط وهو فيلم "المطلوب رجل واحد" وإذا ما استثنينا أفلام (أمين البني) التي أخرجها لفائدة التلفزيون السوري، فسنجد إنتاج هذه القطاعات ليس مهما موازاة مع إنتاج المؤسسة العامة للسينما التي تعد القطاع الوحيد المخوّل له خلق سينما وطنية جادة وملتزمة وذات قيمة فنية، بعيدة عن النمطية وخالية من ممارسات سينما القطاع الخاص .

2.5 ثمانينيات السينما السورية :

إذا ما أجرينا مقارنة لإنتاج السبعينيات بإنتاج الثمانينيات سنجد الضعف الواضح لعدد الأفلام في إنتاج المؤسسة العامة للسينما في فترة الثمانينيات حيث لم يتجاوز العشرة أفلام روائية، غير أن ما يلفت النظر في إنتاج الثمانينيات هو ظهور التوجه الذاتي في السينما السورية أو ما يسمى ب(سينما المؤلف) حيث يقوم المبدع السينمائي بكتابة سيناريو وإخراج فيلمه في الوقت نفسه وهي ظاهرة جديدة في حقبة الثمانينيات في السينما العربية عامة حتى أن مخرجا مثل (سيد زكري) لم يخرج على هذه القاعدة الجديدة

بالرغم إخراجهِ لفيلم "حادثة النصف متر" المقتبس نص أدبي بالاسم نفسه للكاتب (صبري موسى) لكنّه لم يحقق نقلاً أصيلاً للعمل الأدبي بل قام بأخذ هيكلية الحادثة الرئيسية في القصة وافترق عنها في التوجيه وطبيعة شخصيتها البطلة، وربط العام بالخاص على حقيقة اجتماعية وتاريخية، محدّد بالواقع العام الذي ساد قبل و بعد نكسة 1967، ومن هنا نلاحظ أن (سيد زكري) قام بأفلمة مستقلة عن القصة واتخذ فيلمه منعطف الذاتية .

توالى أفلام سينما المؤلف فأنتج فيلم (سيد زكري) "وقائع العام المقبل" الذي ينتقد البيروقراطية، وأنتج كذلك (محمد ملص) فيلمه "أحلام المدينة" إلى الشاشة الكبيرة ويتناول مرحلة الخمسينات في سوريا حيث الانقلابات العسكرية، ثم ظهرت أفلام (أسامة محمد) "نجوم النهار" و(عبد اللطيف عبد الحميد) "ليالي ابن آوى"، واستمرت ظاهرة التوجه الذاتي الشخصي كأسلوب عمل للمخرجين السوريين على غرار كل الأقطار الأخرى، كما ظهرت كذلك لاحقاً أفلام تصب في التوجه نفسه¹⁰ .

3.5 تسعينيات السينما السورية :

يرى النقاد أن فيلم "اللّجّات" ل(رياض شيا) مملاً وبطيئاً لغاية النفور، فهو ينقل واقع صعب من الحياة اليومية في منطقة بسوريا في أربعينيات القرن الماضي (كما تشير إلى ذلك لوحة وضعت باسم الرقابة في سورية في مستهل الفيلم.. للإشارة إلى أن أحداث من زمن الماضي) ومع تدفق أحداث الفيلم، يصبح قصيدة سينمائية مائعة ومهمة، قصيدة خالصة حالية من الشوائب تزينا فنون الإضاءة وانعكاسات الظلال، ورغم التكرار الواضح لتفاصيل الأحداث المستمد من الروايات التقليدية النمطية، غير أن منطقة اللّجّات في جنوب سوريا التي تقع فيها أحداث الفيلم هي منطقة منعزلة ومخيفة وتحتوي على براكين ثائرة، ورغم كذلك أن كبيراً مثل سارتر يقول "أن الواقع غير فني إطلاقاً"¹¹ نرى العكس يحدث في هذا الفيلم.

لا يعتمد الخط الدرامي في الفيلم على قصة البنت التي تهرب بصحبة الأستاذ من قسوة العائلة داخل القلعة المخيفة، بل يعتمد رئيساً على نقل الجو العام الذي تحت سيطرة الساكنة، ويجعلها أسيرة لواقع سلطوي قاهر، فالعمل لا يحتوي على بناء ذو حبكة تقليدية، بل إبداع فني متكامل العناصر السينمائية، يسرد فيه الفنان صورته، ويستلهم ماضيه وحاضره ومستقبله وعاداته وتقاليده وتراثه المصبوغ بهويته، ليصوغ لنا رؤية فنية عن العالم من خلال القرية.

يبدو أن فيلم "اللّجّات" من خلال السرد السوري متميزاً بمنظر الطفل الزاحف، وذلك الصمت المصاحب للظلم، وتلك الآهات للروح المغتصبة التي لا تجد من ينقذها، حيث تلخيص اللوحات السينمائية بإيقاع

الحركة، لتضبط نفسها على توهجات الظلم والحقرة في انتظار الحريق الكبير للبركان وانهمار المياه المتدفقة المدمرة، لتبرز لنا على سطح الوجه الروح المطحونة من خلال الفتاة التي تصرخ ملتاعة بعناصر الفناء ومصيدة الحبس التي نترصدنا من كل جانب حتى داخل ذواتنا.

يقودنا فيلم "اللغات" إلى روح السينما الحقيقية-بحث فني فريد- ويخرج بتفرده عن محيط الأعمال النمطية التي لا تقدم للمتفرج سوى التكرار، ولا تدفعه إلى ما وراء¹².

من أهم الأفلام في هذه الفترة كذلك نجد فيلم "حادثة النصف متر" من إخراج (سمير زكري)، يتطرق فيه إلى أسباب هزيمة حزيران 1967، من خلال عرض يوميات موظف عاشق في مصلحة الضرائب، يخرج عن مفاهيمه الأخلاقية ويتنازل شيئاً فشيئاً عن قيمه ومثله العليا التي تربى عليها، وينساق تدريجياً في ظل النكسة إلى حياة الذئاب واستغلال للفرص، حياة الأسود لا الأرانب، ورغم كلاسيكية هذا الفيلم الذي يطغى فيه الحوار الدرامي والخطب الرنانة والمباريات الكلامية في مكاتب الدولة، إلا أنه يعد من أهم الأفلام كما أسلفنا¹³.

كان موضوع صراع البشر مع القدر محتوى فيلم "الطحالب" ل(ريمون بطرس) الذي أسرده في قالب فني جميل، رغم أنه العمل الأول لمخرجه لكن عنصر الاحترافية بائن، فمن غير المعقول أنه لم يخرج أفلاماً طويلة من قبل، يبدأ الفيلم على مناظر السواقي في مدينة حمص السورية، ثم يعرض مباشرة بعد ذلك هموم الموظف (بطل الفيلم) فهو يعمل كاتباً عمومياً في محكمة، وبالتالي من خلال عمله يلامس قضايا الناس ومشاكلهم المختلفة، يدخل في صراع مع إخوته في التخلي عن قطعة أرض، وعليه فمن خلال هذا النموذج البشري، يعمد المخرج أن يمرر لنا في الفيلم تضاريس المدينة على المستويين الجمالي التشكيلي وكذا النفساني، بحيث يتحول -المخرج- إلى داخل الكادر من خلال حضوره القوي على أبطال الفيلم، ويصبح شاهد على الحدث، ليست "حمص" هنا ديكورا جافاً، وإنما هي قدر تحاول شخصيات الفيلم أن التملص منه ولو هرباً، إنها الطحالب تجذبنا إلى قاع الملل، وتقيدنا بهذا للانقياد الأعمى للحياة الرتيبة، إذ تنطلق رصاصات الثأر حتى داخل المحاكم التي تحكم، وينطلق الأخ مثل كلب لاهث نهشته الكلاب لكي ينتقم من أخيه وتسيل الدماء في كل الاتجاهات حتى يتطهر الجميع من المعانات اليومية.

يربط فيلم الطحالب بين أسلوبين، ويقف منتصفاً المسافة، بين الفيلم الفني الطامح إلى مخاطبة النخبة بلغته الخاصة، والفيلم التجاري العادي الذي يتوجه لمخاطبة العامة، لذلك نراه يتعثر في بداياته، غير أنه

سرعان ما يللم أحداه وقصته المشتتة، لكي يصبح عملا فنيا متجانسا ينشد التكامل، يشعرونا بفداحة مأساة غربتنا داخل الوطن، بل وحتى داخل جسدنا¹⁴.

4.5 السينما السورية بعد سنة 2000:

في الألفية الجديدة وبعد سنة 2000 تحاول السينما السورية أن تكمل مسيرتها، فقد تم إنتاج عدد لا بأس به من الأفلام الجيدة والمهمة في الآن نفسه من حيث الشكل والمضمون، غير أنه من حيث الكم قوبلت بالإمتعاض من طرف المهتمين والفاعلين بالسينما من نقاد وفنانين كبار، بحيث لم تعد كما كانت في سابق عهدها، على هذا الأساس يتطلع العارفين بالعمق التاريخي والرواد الأوائل لهذه السينما والذين كان لهم الفضل في معاصرة صناعة سينمائية في سوريا مع جيل الفاعلين المخضرمين منهم وجيل الشباب يتربون أن تزدهر عملية الإنتاج السينمائي السوري، خاصة مع وجود خبرات فنية هائلة من مخرجين ومصورين وتقنيين وفنيين وأكاديميين والعدد الكبير للفنانين والفنانات السوريات الكبار فالكثير منهم في رصيده تاريخ سينمائي مهم إضافة لمشاهير من الجيل الحالي، فالعمق التاريخي لمسيرة السينما في سوريا لا يمكن أن ينكره أحد، ورغم الظروف السياسية المتقلبة والأحداث الدامية التي مرّ بها البلد تبقى هناك بوادر عودة لسينما لها كل مقومات النهضة.

6. الادب و السينما في سوريا :

ككل سينمات العالم اعتمدت السينما السورية على الأدب، إذ يمكن القول أن السينما السورية و منذ نشأتها الثانية أي بعد إنشاء المؤسسة العامة للسينما بدأت معتمدة على الأدب بشكل كلي واستمرت في الاقتباس الأدبي من المسرحيات و الروايات العربية و المحلية خاصة منها التاريخية، وكان هذا ضمن خطتها الإنتاجية من البداية قصد إنتاج الأفلام الجيدة، أكيد طبعا لم يقتصر إنتاجها السينمائي على الاقتباسات الأدبية دون غيرها، غير أن ما يمكن الإشارة إليه في هذا السياق هو علاقة السينما السورية بالأدب، فهي لم تقتبس إلا من أعمال أدبية عربية و سورية فقط، فالأقتباس كان من الهوية العربية والسورية بخلاف السينما المصرية التي استقادت من الآداب الأجنبية واقتبست منها ما يلائم عادات المجتمع المصري، هذا وقد بدأت العلاقة بين السينما السورية والأدب منذ الإنتاج الروائي الثاني للمؤسسة العامة، فقد ظهر فيلم "السكين" عام 1971 لمخرجه خالد حمادة اقتباسا عن الكاتب الفلسطيني (غسان كنفاني) "ماذا تبقى لكم"

؟ وتوالت بعد هذا الفيلم العديد من الأفلام التي أخذت من الأدب مثل فيلم "الشمس في يوم غائم" لمخرجه (محمد شاهين) و"الفهد" ل(نبيل المالح) عن رواية للكاتب (حنا مينه) وأفلام أخرى كثيرة .

7. خاتمة:

يمكن القول أن السينما السورية نشأت وتطوّرت في حضن المؤسسة العامة للسينما من حيث قطاعها العام، وكان تطورها كمّا وكيّفاً مرتبطاً بمدى الاهتمام بالمؤسسة نفسها وعلى جميع الأصعدة، فالسينما السورية بتاريخها الفريد والتميّز السينمائي لروادها الأوائل الذين عملوا وواجهوا الصعاب في البداية من أجل إيجاد صناعة سينمائية في سورية مختلفة عن النمط السائد في المشرق العربي خاصة وبقطاعها الخاص والعام تواجه اليوم قلّة في إنتاج الأفلام السينمائية بسبب توجه العديد من المنتجين وشركات الإنتاج السينمائي السورية إلى إنتاج المسلسلات التلفزيونية خاصة الرمضانية منها، وبسبب النجاح الكبير التي حققتها الدراما السورية على مستوى العالم العربي في فترة غير بعيدة كذلك، مع ذلك فإن السينما السورية اليوم تقدم أفلاماً مهمة رغم أنها قليلة فهي ذات مستوى راقي وتحصد الجوائز الأولى في المحافل والمهرجانات السينمائية وهناك اليوم مخرجين وفنانين سورين كبار وعلى مستوى عالي من الخبرة ك(سلوم حداد وياسر العظمة وجمال سليمان وغيرهم...) إلى جانب جيل من الفنانين والفنانات الشباب لهم الحضور والشهرة ك(باسم ياخور وباسل خياط وغيرهم...)، يعملون على تسريع دوران عجلة الإنتاج السينمائي في سوريا، ورغم الظروف الكارثية التي يعيشها البلد.

8. قائمة المراجع:

- 1- جورج سسادول، تاريخ السينما في العالم، ترجمة: فايز الكيلاني، فايزكم نقش، منشورات عويدات، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، 1968، ص537.
- 2- الحسيني محمد، جوان 1995، السينما السورية.. حصيلة قليلة.. ولكنها متميزة، مجلة العربي، مطبعة حكومة الكويت، العدد 439 - ص174.
- 3- المرجع نفسه، ص175.
- 4- فريد سمير، 1988، هوية السينما العربية، دار الفارابي، الطبعة الأولى، ص24.
- 5- الحسيني محمد، السينما السورية.. حصيلة قليلة.. ولكنها متميزة، المرجع السابق، ص175.
- 6- أحمد كامل مرسي ومجدي وهبة، معجم الفن السينمائي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دط، 1980، ص319.
- 7- الحسيني محمد، السينما السورية.. حصيلة قليلة.. ولكنها متميزة، المرجع السابق، ص177.
- 8- العريس ابراهيم، 1979، رحلة في السينما العربية، دار الفارابي - بيروت - الطبعة الثانية، ص11.
- 9- الحسيني محمد، السينما السورية.. حصيلة قليلة.. ولكنها متميزة، المرجع السابق، ص178.
- 10- الحسيني محمد، السينما السورية.. حصيلة قليلة.. ولكنها متميزة، المرجع السابق، ص178.
- 11- albert laffay , l'art du cinéma, éditions seghers, France, 1960, p323.
- 12- هاشم صلاح، 2014، السينما العربية خارج الحدود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د ط، صص11-12.
- 13- المرجع نفسه، ص84.
- 14- هاشم صلاح، السينما العربية خارج الحدود، المرجع نفسه، ص237.